فضل اللّه وأبو زيد.. حضور في الغياب

محمد سعيد الصكار
mohammed_saggar@yahoo.fr

موجع أن يكون القول هذا الأسبوع عن لؤلؤتين من لآلىء الفكر العربي التنويري المتجدد، غابتا من حياتنا ونحن بأمس الحاجة إلى حضورهما ليسندا ما تبقى لنا من قوة في صراع الأفكار في وقت تتناهبنا فيه أفكار الإرتداد العقلي والسلوك الغيبي والرضا بما قسم، وتعطيل فاعلية العقل في البحث والتنقيب، وتصويب المغالطات في بناء الشخصية الإنسانية الواعية.

ما الذي يمكن أن يقال في غياب السيد محمد حسين فضل الله، الحجة الثبت، والألق الفكري الذي أضاء الملامح المضببة في زوايا حياتنا، ونقلنا إلى منطقة الكشف عن ما افتقدناه من جسارة في كشف المؤجل، وفصاحة الحقيقة.
أليس من المرارة وقلق الروح أن نفقد اثنين من مصابيحنا بين يوم وآخر؟

وكيف لنا أن نعترف بالفضل العلمي الكبير الذي فتحه لنا نصر حامد ابو زيد من كوة لمراجعة ما نحن فيه من فوضى التأويلات، واختصار المسافات العقلية بأبعاد غيبية وأحكام قابلة للنقاش، ولكنها لم تناقش.
غاب فارسا العقل والجرأة في قولة الحق في عز الحاجة إليهما.

فضل الله، جاءنا من كوكبة المتنورين في طلبة الحوزة النجفية في الحقبة التي ضمت حسين الحلي وحسين مروة ومحمد شرارة وصالح الجعفري ومحمد رضا الشبيبي ومحمود الحبوبي ومحمد جمال الهاشمي وفريق منتدى النشر في النجف، ومن جاء في موكبهم من الشعراء أمثال الجواهري وعلي الشرقي منذ بداية القرن العشرين.

في غياب السيد فضل الله، وما شاهدناه من مظاهر التشييع المهيبة التي حفلت بها تلك المسيرة العامرة التي جمعت الشيعة والسنة والمسيحيين والعلمانيين، يؤكد أن للحق قوة، وأن للعقل قوة تتجاوز ما يحاول المتخلفون تغييبه. وهذا لبنان بكل أهله يسند قوة العقل وصفاء الروح، ويؤكد أن الأمة بخير ما دام فيها أمثال هذا العالم الكبير، وهذا الجمهور المتطلع.

وجاء نصر حامد ابو زيد من عمقين، عمق البيئة الشعبية في مصر التي صقلت حياته وتمكنت من أفكاره، وعمق الثقافة العربية الإسلامية على امتداد تاريخها، وتنوع فروعها، ومكنته من الغور في تاريجها وواقعها المعاصر، وما يحفل به وجودها من فوضى الكلمات التي تأتي وفق أمزجة لا تليق بما تحمله تلك الثقافة من وقار وموضوعية غابت عن أدعياء العلم والمعرفة.

جريئان في قولة الحق؛ أبقيا لنا من قوة العقل ما يتبغي أن نتصحفه جيدا لنعرف مدى خطواتنا إلى ما نطمح إليه من حياة .

سلام على روعة العقل الذي يتواصل مع ما نعتد به من تراثنا، ويمسح لنا ضباب التأويلات التي تغلق باب العقل..

نصر حامد أبو زيد في هولندا

صلاح حسن
أمستردام

> لم يكن ضحية كما كان يقول دائما ولم يطلب اللجوء السياسي في هولندا لكي لا يحرج الحكومة الهولندية أمام مصر فكان مصدر امتنان للمؤسسات السياسية . لقد دعي لكي يكون استاذا مشاركا في جامعة لايدن الشهيرة من اجل الإشراف على طلبة الدكتوراه في الجامعة في قسم الدراسات الإسلامية . أول محاضرة قدمها في الأراضي المنخفضة بدأها بالبسملة والشهادة لكي يقول للحاضرين الذين احتشدوا في القاعة انه لم يكن كافرا ولم يكن ضد الدين ، بل جاء لكي يحرر هذا الدين من قيود فرضها عليه رجال من قرون ماضية كما في رسالته لنيل كرسي الاستاذية عن الإمام الشافعي الذي أغلق واحدا من أهم واخطر أبواب الإسلام وهو الاجتهاد .

خلال فترة قصيرة من وجوده في هولندا كرمته المؤسسات العلمية هناك بأن منحته كرسي ابن رشد الذي استحدث من اجله وباسمه العربي في جامعة اوترخت . أتاح له وجوده في هدا المكان فرصة كبيرة للاطلاع على الإسلام غير العربي خصوصا في تركيا وإيران واندينوسيا من خلال الاساتدة والطلبة القادمين للدراسة في هولندا ، هو الذي كان مشغولا بأسئلة الشارع المصري والعربي . لقد كان وجوده في هولندا وجودا مكانيا كما كان يصرح في اللقاءات التي كانت تجمعه بالمثقفين العرب لان اهتمامه بالجمهور العربي والإسلامي والثقافة العربية لم ينقطع أبدا .

في أجواء الثقافة الهولندية والأوربية بشكل عام ، تلك الثقافة التي تحررت من الكثير من الحواجز في تعاملها مع نصها الديني أصبح عمله أكثر جرأة وانفتاحا من خلال الأسئلة التي كانت تثيرها بحوثه عند الاساتدة والطلبة على حد سواء ، ما دعا بعض الجامعات الأوربية إلى استضافته لتقديم محاضرات تتعلق بالشريعة والإسلام المعاصر وحقوق المرأة في الإسلام .

في كل محاضرة كان يقدمها أبو زيد وفي أي مكان في هولندا وسواء كان دلك في الجامعات أو في المنتديات كان الحضور يأتون من كل مكان من اجل الاستماع له ، وغالبا ما يكون الحضور من الوزراء والسفراء والمستعربين والمهتمين بالثقافة العربية والإسلامية . وغالبا ما كان هدا الجمهور يتمنى لو إن المحاضرة تستمر لساعة أخرى بسبب كثرة الأسئلة التي تثيرها محاضراته الجديدة والمؤثرة للغاية ، خصوصا للجمهور الهولندي المتعطش لمعرفة واقع الإسلام في اللحظة الراهنة .

لم يكن الجمهور الهولندي والأوربي وحده من يحرص على حضور محاضرات نصر حامد أبو زيد ، بل الجمهور العربي والجاليات المسلمة وغير المسلمة من الطوائف الصغيرة الموجودة في هولندا .

وغالبا ما كان يسأل عن موقف الإسلام من هده الطوائف التي كانت موجودة قبل الإسلام ، وأطرف ما حدث انه دعي ذات يوم من قبل الجالية المندائية العراقية لحضور عملية التعميد بالماء في احد المسابح في مدينة لاهاي من اجل معرفة أصول هده الجالية التي انبثقت عن الثقافة السومرية قبل أكثر من ثلاثة ألاف سنة في جنوب العراق .

من الطريف أيضا أن يعرف القارئ إن الأغلبية الغالبة من جمهور البروفسور أبو زيد كان من النساء العربيات والمسلمات والهولنديات ، حيث كن يثرن أسئلة محيرة وغامضة ولكنه بحنكته وعمق معرفته كان يقدم أجوبة مثيرة وبارعة إلى درجة الإعجاب وكان ينال عن دلك تصفيق هدا الجمهور الذي غالبا ما يطلب المزيد من هدا المفكر المثير للجدل في كل مكان يكون فيه .

كان المفكر أبو زيد يستخدم في ترتيب محاضرته شاشة صغيرة ويعرض عليها أفكاره بشكل مختصر أولا باللغتين العربية والانكليزية مقرونة بآيات من القرآن الكريم لكي يتيح للحاضرين فرصة استيعاب أفكاره التي يتوسع فيها بين فترة وأخرى حين تستدعي الضرورة ، ما يجعلها سلسة ومتصلة مثل سلسلة متكاملة .
قبل سنوات قليلة ومن اجل تبسيط رؤية الأديان بشكل عام والإسلام بشكل خاص للجمهور اقترح الكاتب المصري المعروف رؤوف مسعد المقيم في أمستردام على المفكر أبو زيد فكرة كتاب يتألف من أسئلة مشككة يقوم أبو زيد بوصفه مفكرا إسلاميا وأكاديميا بالرد عليها . وقد ظهر الكتاب تحت عنوان " الإسلام لابني " ونشر في المغرب .
هولندا تنعى المفكر
ونشرت الصحف الهولندية نبأ رحيل المفكر نصر حامد أبو زيد ونعتته بالمفكر التنويري الجريء الذي سيترك فراغا كبيرا على الساحة الفكرية الهولندية والعربية . وقالت صحيفة " دي فولكس كرانت " كان وجود هدا الرجل في هولندا مصدرا مهما للتعريف بالإسلام والثقافة الإسلامية التي كنا نمتلك عنها أفكارا مبسطة .
يذكر إن الكثير من طلبة الدراسات الإسلامية ومن مختلف البلدان العربية والإسلامية كانوا تخرجوا على يد البروفسور نصر حامد أبو زيد خلال عمله في جامعتي لايدن واترخت خلال السنوات الخمس عشرة التي قضاها في هولندا.

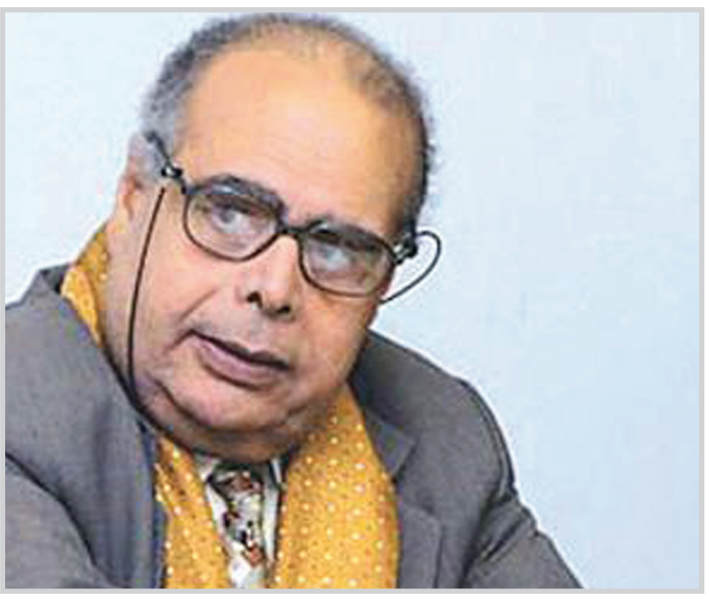

دوريات

عدد جديد من مجلة " أوراق فراتية "

بشار عليوي

عن دار الفرات في محافظة بابل ، صدر العدد الثالث من مجلة " أوراق فراتية " وهي مجلة فصلية تعنى بالتراث والثقافة المعاصرة . جاءَ هذا العدد من المجلة ، مُتخماً بالكثير من الدراسات والمقالات حيث نُطالع في البدء كلمة العدد التي تعنونت بـ" وقفة قصيرة " بقلم رئيس التحرير ، وكتبَ د. محمد الشمري دراسة حملت عنوان (المدرسة الزينبية في الحلة) ، وكتب د. فارس عزيز مُسلم مقالة بعنوان (مدينة الشعر) . وفي إستذكار ثورة العشرين نطالع للدكتور كامل الجبوري (قصة المدفع الذي أغرق "فاير فلاي") . أما د. عباس الجراح فكتبَ (بن أبي زنبور النيلي .. حياته ومابقي من شعره). ونقرأ مقالة تعريفية بأسرة القزويني للباحث جواد عبد الكاظم محسن . ونقرأ للكاتب محمد علي محيي الدين مقالة تعنونت بـ(مدينة القاسم) . وضمن محور دراسات قرآنية كتبت نهى حازم الحلي دراسة جاءت تحت عنوان (نشأة القراءات القرآنية) . أما د. عامر الخفاجي فكتبَ (منهج فرات الكوفي) ، ونُطالع أيضا (محمود أحمد السيد مقالياً) بقلم د. علي ابراهيم . فيما كتبَ عباس البغدادي (الأثر ... إمتلاء وفراغ / البيت المرجاني إنموذجاً). وللباحث عامر صباح المرزوك فقد نشرت المجلة دراسته النقدية الموسومة بـ(تقنيات تكوين المثل المسرحي). وكتبَ عبد الرضا الحميري رأياً حول مشروع تصميم الحلة الأساسي الجديد . وللمُترجم صلاح السعيد ، نطالع (طقوس ما بعد الموت). وأفردت المجلة ملفاً خاصاً عن الشاعر الراحل جعفر هجول ، من إعداد الأديب أحمد الناجي. وكتب الأديب عبد الرضا عوض مقالة تعنونت بـ(مقتل حكيم البكاء).

في الأيام الثقافية العراقية بالقاهرة

مُشاركة مُتميزة وحضور فاعل للأُدباء الكُرد

خاص بالمدى
القاهرة

ضمن فعاليات (الأيام الثقافية العراقية) المُقامة حالياً في مدينة القاهرة بجمهورية مصر العربية، تُشارك وزارة الثقافة في حكومة إقليم كُردستان ضمن الوفد الثقافي العراقي بمجموعة من الأُدباء الكُرد هُم القاص والشاعر حسن سليفاني رئيس إتحاد الأُدباء الكُرد في دهوك والشاعر آوات حسن أمين عن إتحاد الأُدباء الكُرد في السليمانية والكاتب كمال غمبار عن إتحاد الأُدباء الكُرد في أربيل ، بالإضافة الى مدير العلاقات العامة في وزارة الثقافة في حكومة الإقليم آزاد دارتاش . وقال القاص والشاعر " حسن سليفاني " في إتصال هاتفي خاص بـ (المدى) ... تأتي مُشاركتنا في الأيام الثقافية العراقية ، كخطوةٍ مُهمة على طريق إيصال صوت الثقافة الكُردية الى المتابع العربي وخصوصاً في بلدٍ مُهم يعج بالحركة الثقافية كمصر . حيثُ تمثلت مُشاركتنا وضمن البرنامج الخاص بالفعاليات ، بالمُشاركة في الجلسة الشعرية الأولى التي عُقدت يوم الأربعاء ٧/٧ على قاعة المجلس الأعلى للثقافة بمُشاركة الشُعراء (كمال غمبار / آوات حسن أمين / حسن سليفاني / ماجد عبد الخضر) وأدار الجلسة الشاعر سعد جاسم، حيثُ قرأ الأستاذ كمال غمبار إحدى قصائده باللُغة الكُردية ، وكذلك الشاعر آوات حسن أمين أما المُتحدث فقد قرأ مجموعة من قصائده . ثُم عُقدت ندوة ثقافية يوم الخميس ٧/٨ حولَ القصيدة التفاعلية للشاعر د. مشتاق معن عباس ، وأدارَ الندوة الشاعر حسن سليفاني . وفي يوم السبت ٧/١٠ أقيمت جلسة شعرية خاصة بالشعراء الكُرد أدارها الإعلامي أياد الزاملي وبمُشاركة الشُعراء (آوات حست أمين وحسن سليفاني وكمال غمبار) حيثُ ألقيت فيها مُختارات من الشعر الكُردي المُعاصر ، كما سيُشاركَ الشاعر آوات حسن أمين بالأُمسية الخاصة بالشاعر المصري المعروف أحمد عبد المُعطي حجازي ليوم الأحد ٧/١١ . وأضاف الشاعر حسن سليفاني أن الأُدباء الكُرد المُشاركين، كانَ لهم لقاءاً خاصاً مع وزير الثقافة المصري فاروق حسني وعدد من المسؤولين بالوزارة ، حيثُ تمَ الإتفاق حول إمكانية إقامة مهرجان ثقافي كُردي في مصر ومهرجان ثقافي مصري في كُردستان .

حينما حلقت نوارس كلية الفنون على ضفاف دجلة

د. يوسف رشيد

> لطالما أشر (هيثم عبد الرزاق) حضوره الإبداعي ممثلاً وباحثاً في تطوير الياته الادائية على مستوى التمثيل داخل العراق وخارجه ، ونجده هذه المرة في تجربة يضيفها الى رصيده مخرجا ، وعليه فاننا اذا ما حاولنا ان نتلمس الملامح لتجربته الإخراجية هذه ، لوجدنا انها تعتمد على معرفة ودراية بالاتجاهات الإخراجية ، و اذا ما شبهناها بجبل الثلج لوجدنا ان ما يطفو على سطحها هو اتجاه (للمخرج الممثل) اذا جاز لنا ان نسميه وهو يقترب بذلك من أسلوب المفكر المسرحي الراحل (قاسم محمد) وغيره ممن انعكست خبراتهم التنظيرية وإيمانهم العميق بالطاقة الخلاقة للممثل على تجربتهم .على الرغم من أختلاف المرجعيات لكل منها .

وهذه قد تكون واحدة من مميزات العمل في الورش المسرحية عندنا في العراق وربما في الكثير من التجارب التي قدر لنا الاطلاع على بعضها – عندما يكون جسد الممثل وصوته مدينة مسكونة بالإبداع وعندما تكون حواسه الخمسة ابعاداً مثالية لسينوغرافيا ذلك الجسد عندما يكون العمل في ورشة التمثيل هو سعي حثيث وتمرين مستمر ومتواصل على الاكتشاف في فضاءات تلك المدينة وعوالمها السحرية فمنهم من شغف بالصورة التشكيلية للأداء وآخر يبحث في انثروبولوجيا الجسد وآخر يبحث في بلاغة الكلمة وغيرهم اشتغل على بلاغة الانفعال ، وكل هذه التجارب والصور في الورش المسرحية شكل (عبد الرزاق – المخرج) مكونه الإبداعي من معرفته بها واطلاعه على معظمها ، ليختار من خلالها نموذجه الذي يتناسب والمكون السوسيولوجي لبيئته العراقية .

يندرج هذا العرض بصيغته التجريبية هذه في إطار التمرين للورشة المسرحية اذ ينفتح الخطاب (السمع – بصري) فيه على شتات قصدي لتشكيلات سينوغرافية تتسم بالدينامية منذ اللحظات الاولى (للتمرين – العرض) وهو يبدأ كاي خطاب مفكك يحاول ان يفترش ارضية فضاءات التوقع في بداياته يهشم ابنية ويعيد تشكيلها ، حتى تختمر فكرة إئتلاف دوال العرض على خطة تستهدف انتقاءاً قد يبدو غير مباشر الا انه شكل دخولاً ذكياً الى هم جمعي ويومي اجتماعي بوصفه نسقا ثقافيا متحكما في راهنيته و بمدخل قد يخالف التوقع وهذا هو ديدن المسرح في وظيفته الإبداعية لتناول ما هو مالوف .
وهذا ما سهل على المخرج (هيثم عبد الرزاق) مهمة الولوج المبرر الى (مسرحة الوضوح) وهذه مهمة تتصل فعلاً بمفاهيم وبرامجيات الورش المسرحية . فالتجربة هنا لم تحاول ان تقدم فكراً فلسفياً يستدعي التأمل والتأويل في البنى العميقة بقدر ما تركز على طاقة متعددة الأفاق في الأتصال بألمالوف ومعالجته بوعي إبداعي فني ،فمالوفية هذا العرض تكمن في التقاط هم الشارع لتحاكمه علناً وفي الشارع الذي حضر في هذا العرض بقوة بوصفه ابرز المهيمنات عبر تسليط الاضواء عليه ،ورغم أن العمل في الورش المسرحية هو عمل فني صرف ان من مخرجاته ان يقدم فكراً الا ان ذلك الفكر يخالطه استعراض للقدرة على قيادة الفريق والقدرة على التعبير الخلاق في أقصى درجاته الممكنة ، وطالما ان العرض المسرحي الذي شهدناه هو من هذا النوع الا انه لم تغيب عن المتمرنين فيه فكرة التركيز على ذلك البعد (الجمالي – الفكري) للعرض وصياغته بروح جماعية تجسد محبة مبدعيه وعشقهم للتجربة في جميع مفاصلها وهذه من الحيثيات التي شكلت الاختزان الواعي لابعاد الموضوع ، ثم الأشتغال على مسرحة المالوف الذي يكتنزه الموضوع ، وبالتالي الدفع به الى ساحة التلقي في (كتابة جديدة) – حاولت ان تجرد المالوف من شعاراته التقليدية مضمنة اياه موقفاً يتصل بالاتفاقية الجمعية التي هي احوج ما نكون اليها الان في زمن كثر فيه المغنون (وكل يغني على ليلاه) وكثر فيه (الطبالون) بانغامهم الجوف حتى ملئت اصوات طبولهم الفضاء بالنشازات ، حتى باتت موسيقى الحاضر بحاجة الى الايقاع البطل الذي لابد منه لتنظيم الحياة من جديد فكان هاجس المخرج الذي ادرك مقولة برشت (تعيس هو الزمن الذي ليس فيه ابطال) يحركه باتجاه (امثولة) تدعو الى ترسيخ صورة البطل الذي يوحد جميع النشازات عندما يكون هناك (قانون) هو الذي يضع جميع الاشياء في نصابها الصحيح ، ولعل مما يثير الاعجاب بهذا التمرين المسرحي انه عندما تصدى الى واحد من المالوفات الجمعية القديمة قدم الكون وقدم الطبيعة وقدم النشوء الانساني انما كان يريد ان يضع امامنا اكثر من مقترح تأويلي – واسئلة غير تقليدية يمكن ان تثيرها تلك (الثيمة الاساسية) التقليدية ، فهو من جانب آخر ينتمي الى نمط من العروض المسرحية الساخرة التي رصدت في هذه الفترة من حياة مسرحنا العراقي الكثير من أوجاعنا اليومية ووضعتها تحت المجهر او سلطت الضوء عليها لتعلن ان المسرح لم يتخلى عن مهمته الاجتماعية ولا عن وظيفته التحريضية ولا عن مسؤوليته في صياغة شكل الحياة (فالمسرحية – التمرين) كانت خطاباً اجتماعياً وشعبياً متحضراً اراد له (هيثم – المخرج) ان يقترب اكثر من قراءة ، ولعل تعدد القراءات هذا قد تخصب في مستوين هما ، مستوى التمرين الذي بمقدوره ان يقدم عرضاً فيه قابلية على توجيه الخطاب المتعدد الانساق ، ومستوى التلقي الذي يترتب على ما انطوى عليه ذلك التمرين وتعدد القراءات في تلقيه . مما بين (طبالون – كراس) و ما بين (فوضى غياب للتقاليد وتغيب لسلطة القانون) يقع مستوى تاويلياً قريباً في ترميزه من الوعي الجمعي ومن الهم اليومي والواقعي (بحسب كاسيرر) وما بين موزع لهذه الايقاعات مشكوك في نواياه اذ هو بين من يقصد توحيد هذه الايقاعات وبين من يحاول سلطوياً تشكيل الإيقاع العام لكل الأصوات على وفق سياسته وما تبدعه التة هو وذلك هو المرض الشرق ديمقراطي .

لقد كان عرضاً اقتصادياً في جميع مستوياته، مثيرا للجدل ومهماً في انطوائه على (امثولة) تشدد على الحاجة الى التقاليد والى القانون الذي يوحد الأصوات كلها ، الا ان التكرار لهذه الدعوى في المشهد الأخير قد بدى زائداً على بلاغة العرض المقدم . لقد كان ممثلو (هيثم عبد الرزاق) علامات تدل على صحة لمستقبل المسرح وكان تميزهم دليل وعي للدرس الأكاديمي في قسم المسرح / كلية الفنون الجميلة ، ووعي بأهمية العمل بروح الفريق في ورشتهم الأكاديمية .

تلويحة المدى

فينا شيء من نصر حامد أبو زيد أو كله

شاكر لعيبي

تفقد الثقافة التنويرية العربية، بموت المفكر والكاتب المصري نصر حامد أبو زيد يوم الاثنين ٥ تموز ٢٠١٠، علما من أعلامها ومفكرا من مفكريها العقلانيين السائرين على نهج المعتزلة وابن رشد، مهما اختلفنا حول هذه النقطة أو تلك في فكره. لقد تشبث بالحرية، بذلك الخيار الذي لم يتخلى عنه معتزلة العراق أمام فكرة الجبر الطاغية. لم يتأرجح الرجل أو يتذبذب أو يتنكر لأعماله، متعرضا للتشهير والتكفير والطرد. ومثل المعتزلة الذين وقف ضدهم فقه الدولة الرسمي، وقفت المؤسسات الدينية النافذة في مصر ضده متمادية إلى درجة تطليقه من زوجته، أستاذة الأدب الفرنسي بجامعة القاهرة ابتهال يونس. ومثل الأحرار اختار الذهاب إلى هولندا دون التراجع عن خياره الحر. أمام الجمود في تفسير النصوص توقف عند رحابة التأويل، وأمام القبول بالمسلمات اختار أشغال العقل والتفسير الموضوعي. فكتب عارفاً ومن داخل الحرم التراثيّ أعمالاً أساسية منها "الاتجاه العقليّ في التفسير: دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة" ١٩٩٦، و"فلسفة التأويل: دراسة في تأويل القرآن عند محيى الدين بن عربي" ١٩٩٣ و"مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن" ١٩٩٨ و"الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية" ٢٠٠٧ و"نقد الخطاب الديني"ط٢، ٢٠٠٣. فجّر الكتاب الأخير خاصة جدلاً واسع النطاق بين مؤيد ومعارض لاستنتاجاته، لم يتوقف أبداً حتى في لحظة إعلان وفاة المفكر المصري حيث انشطر جمهرة من القراء العرب بين مقدم لروحه الإجلال والتقدير وآخر لا يرى فيه سوى شبح للكفر الصريح والتشكيك الفادح بالنصوص القدسية.

أليس مثيرا أن نرى أن سؤالات المعتزلة عن الحرية في الاختيار، فالإنسان مخير على حد تعبيرهم وليس مسيراً، ثم مشكلة خلق القرآن إزاء الجبر وقدَم النص، وما يتفرع عنها من معضلات حاسمة، هي مأزق كل من يتناول هذه الموضوعات وفي جميع عصور الإسلام، وهي بالضبط من قادتهم إلى مواجهات فلسفية وقمع وتهميش رغم فترة الانفتاح الذهبية يومذاك، وقادت هي عينها نصر حامد أبو زيد إلى المواجهات القاسية والقمع الشديد، كأن ثقافتنا العربية الإسلامية ليست براغبة في حل الأسئلة إلا بطمرها أو إقصاء من يتناولها. كأن الصراع على هذه الأسئلة من طبيعة تناحرية، نهائية، عليها أن تنتهي بالضربة القاضية فقط وليس بالقبول الودي بالفكر الآخر.

يبدو لي مصير نصر حامد أبو زيد (ولد عام ١٩٤٣) استعارياً ورمزياً، فهو يلخص في شخص واحد تجربة جيل من المثقفين العرب الذين تعرّضوا بالمستوى ذاته من الاضطهاد الفكري والترهيب بجميع أشكاله إلى الطرد من الحدائق الاصطناعية للدولة الرسمية العربية وأيديولوجيتها، قومانية ودينية على حد سواء، فاختاروا المنافي أيضا وتجرّعوا الأمرّين، وبسبب شروط المنافي وقسوتها تفتت أحيانا علاقاتهم العائلية والزوجية، وجرى تطليقهم مداورة وليس بالصراحة الفظة التي تم بها الأمر في حالته. حالة رمزية لأنها تعلن من دون تردد أن الثقافة العربية تعيش فترة صعبة منذ ثلاثين عاماً، وأن صعود الأصوليات من كل نوع توازى من الطرف الآخر بصعود أنواع الخفة الثقافية إنْ على مستوى المواضيع السائدة أو الممارسات اليومية في الصحافة والإعلام والفنون الغنائية.

فترة حرجة يعبر عن وجهيها خبر تعبير انشطار الفضائيات العربية بشكل عام إلى دينية أو خليعة خفيفة، وما بينهما ثمة القليل الذي يُعتد به ويُحترم دون أن ينفي عموم الظاهرة. ها هنا بعد استعاري، فإن الجيل الذي يمثله نصر حامد أبو زيد يقع فيما يُعتد به لكن على هامش تينيك الظاهرتين القطبيتين القويتين.

كان صراع الرجل صراع المثقفين المتنورين العرب المشددين على ضرورة قبول القراءة الأخرى للظواهر حتى الدينية منها، الكفيلة وحدها بإنعاش الثقافة وصيرورتها وديمومتها. قد يختلف المرء معه حول أهمية نقد الفكر الدينيّ أو تأجيله لمدى طويل، أو حتى ترك مواجهته نهائياً، لكنه لن يختلف معه في ضرورة التأويل والقراءة المتجددة للتراث الإسلامي الكبير، نوعا وكما، ونقده من ثناياه وبأدوات معرفية حديثة. وهنا بعد آخر في حياة الرجل: كان من العارفين بالتراث، غير المستهينين به خلافاً لدعاة الحداثة والتجدّد التي تضرب صفحا عن الأصول التاريخية. وهؤلاء يبدون وكأنهم لا يعرفون أن كبار الفلاسفة والمفكرين المتنورين الأوربيين هم من أكبر قراء تراثهم اليوناني، حتى أن المطابع لا تكف سنويا عن إصدار مئات المؤلفات عن هذا (التراث)، بل كأن شعراء حداثة مزعومة لدينا يبدون وكأنهم يجهلون أن الشعراء الإنكليز أو الروس أو الفرنسيين الحداثيين المعاصرين لا يتنكرون لشكسبير أو بوشكين أو رابليه. ما زال الشافعي وإخوان الصفا فاعلين في العقل العربي بطريقة ما، سيقول لنا نصر حامد أبو زيد، مثلما ما زال امرؤ القيس والمتنبي وأبو نواس فاعلين، سنضيف نحن من جهتنا.

في جميع المثقفين المتنورين العرب شيء من رمزية حياة نصر حامد أبو زيد، بدرجات متفاوتة من الشجاعة والصرامة والشهرة.